من تراب الطريق (٣٧١)

عاوزنا نرجع (*) زى زمان ؟!

يلاحظ المطالع لمدونات التاريخ، ومؤلفاته، ومذكرات القادة والزعماء والرؤساء، والدراسات السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وما كتب عن المحاماة والمحامين، وتصانيف الحركة الوطنية والحياة السياسية والفكرية فى مصر - يلاحظ ظاهرة جلية لا تخطئها عين.. ظاهرة حضور المحاماة والمحامين والحقوقيين بعامة، فى مقدمة المد الوطنى، وفى مضمار السياسة والحكم، وفى زعامات الأحزاب وعضوية ورئاسة الوزارات، ورئاسة وعضوية مجلسى النواب والشيوخ، ومن بعدهما مجلسى الشعب والشورى، وفى ريادة الفكر والأدب والثقافة والصحافة .. يجد منهم «الزعيم»، و «الرئيس»، و «الوزير»، وزعماء الحركة الوطنية، ورؤساء الوزارات والمجالس النيابية والأحزاب، ونجوم الفكر والأدب والثقافة، ورؤساء تحرير الصحف والدور الصحفية .. ذلك واقع حاصل فى مصر وفى العالم العربى، وفى أوربا والهند، وفى أمريكا .. فى إحصائية أوردها دونالد. إم. ريد - الباحث الأمريكى والأستاذ الجامعى صاحب كتاب: «المحامون والسياسة فى العالم العربى منذ ١٨٨٠ - ١٩٦٠» - وقد كتبت مقدمة ترجمته لمؤسسة روز اليوسف ضمن سلسلة الكتاب الذهبى ..

(*) المال ١٠/ ١٢/ ٢٠٠٩

تقول الإحصائية إنه قد تولى رئاسة الولايات المتحدة الأمريكية حتى عام ١٩٦٠ ـ ٢٥ رئيسا من المحامين والحقوقيين من بين ٣٩ رئيسًا .. يضاف إلى هذه الإحصائية الرئيس ريتشارد نيكسون المحامى الذى ترأس الولايات المتحدة فى السبعينيات بعد تاريخ هذه الإحصائية ، والرئيس الأمريكى لدورتين متتاليتين المحامى بيل كلينتون الذى استطاع أن يفوز فى الانتخابات على جورج بوش الأب صاحب القدرات الفذة والسجل العريض .. بزوغ نجم المحاماة والمحامين فى أوربا ظاهرة لافتة ، بدءًا من الحركات الاجتماعية ، ومرورًا بالثورات ، ثم بمناصب الوزارة ومراكز الإصلاح .. كان المحامى روبسبير أحد ألمع وأبرز زعماء الثورة الفرنسية (١٧٨٩م) ، وكذلك كان المحامى لينين الثائر وزعيم الثورة البلشفية الذى غير وجه التاريخ فى روسيا القيصرية ، بينما كان المحامى ألكسندر كيرنكلسى مصلحًا اجتماعيًا صاحب نظرية خاصة فى الإصلاح .. من بين المحامين والحقوقيين فى أوربا برزت نجوم لامعة فى الحرية والوطنية والسياسة والإبـداع الفكرى والأدبى والاجتماعى والاقتصادى .. منهم كالفين ، وفرنسيس بيكون ، وميكيافيللى ، وكورنياى ، وليبنتيز ، ومونتسكيو ، وفولتير ، وديدروت ، وهوم ، وبنتام وغيرهم .. بينما تطالعنا فى الهند صورة المحامى غاندى الذى صار اسمه أسطورة للمقاومة السلميه ، واستطاع بها أن يقود حركة إحياء عمت الهند ، وأن يقض مضاجع الاحتلال الإنجليزى فى شبه القارة الهندية !

فى العالم العربى المعاصر تطالعك من المحامين والحقوقيين صورة «الملك» الحسن الثانى ـ صاحب الاتجاه المحافظ ، وصورة الليبرالى الوطنى التونسى الحبيب بورقيبة ، وفارس الخورى الرئيس السورى ، ومن الاتجاه الاشتراكى ـ مع الفارق : كمال جنبلاط فى لبنان ، وصدام حسين التكريتى الذى حكم العراق أمدًا حتى انتهى حكمه بالنهاية المأساوية التى صاحبت الغزو الأمريكى البريطانى للعراق وانتهت بإعدامه فى مشهد مثير أول أيام عيد الأضحى !!

من الشام ، برزت أسماء أخرى عديدة .. أمين الجميل المسيحى السورى مؤسس جريدة «الحقوق» ، وهو شقيق اليسارى المعروف شبلى جميل .. ويوسف عساف السورى المسيحى محرر جريدة «المحاكم» ثم جريدة «الشريعة» التى ظهرت ١٨٩٣/ ١٨٩٤ بمبادرة من المحامى والحقوقى المصرى أحمد لطفى السيد (أستاذ الجيل) ، وإسماعيل صدقى الذى شغل منصب الوزارة كثيرا وتولى رئاسة الوزارة المصرية عدة مرات . ومن الرعيل الأول نيقولا توما الذى توفى سنة ١٩٠٥ ، وأحد معاصرى سعد زغلول والهلباوى فى مصر .. وكان مع أمين الجميل ممثلا للأنماط المهنية للمسيحيين السوريين ، وانضم للتيار المتدفق إلى مصر من الشام ، وصار واحدًا من صفوة المحامين فى زمانه .. بالتوازى معه شارل داباس واسكندر عامول من لبنان ، وجميل مرادم من سوريا ، وعونى عبد الهادى من فلسطين ، وتوفيق السويدى من العراق .

زعماء مصر ورجالاتها الكبار ، فى العصر الحديث ، كانوا جميعًا ـ قبل ١٩٥٢ ـ من المحامين والحقوقيين .. مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وسعد زغلول ، ومصطفى النحاس ، وأحمد ماهر ، ومحمد حسين هيكل ، ومكرم عبيد وغيرهم .. عقد المحامين العظام الذين شغلوا الحياة الوطنية والفكرية والأدبية فى مصر عقد فريد وعظيم ... بدءًا من الزعيم الخالد مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ، ومؤسس وزعيم الحزب الوطنى القديم ، والذى اختار دراسة «الحقوق» بالذات وانخرط فى «المحاماة» خصيصا ليؤهل نفسه للدور الرائع الذى أداه فى خدمة القضية الوطنية حتى وافته المنية وهو فى منتصف العقد الرابع من عمره .. تتابعت معه ومن بعده نماذج رائعة فى الحركة الوطنية وما يغذيها من سياسة واقتصاد وإدارة وفكر وأدب وصحافة ..

طفقت أسترسل مع هذه الخواطر التى سطرتها فى كتاب «رسالة المحاماة» فقطعت علىَّ أم كلثوم حبل الخواطر والأحلام .. جاءنى صوتها يشدو : «عاوزنا نرجع زى زمان : قل للزمان إرجع يا زمان» .

*****